ايضاح المعالم في تاريخ القواسم

تأليف : سالم بن حمود السيابي (قاضي)
الناشر : المطبعة التعاونية ، دمشق ، ١٩٧٦ .

مراجعة : د. نجاة عبد القادر

يشكل الكتاب محاولة لا بأس بها للتعبير عن وجهة نظر عربية حول « القواسم » وذلك من خلال التعليق على ما ورد حولهم في احد المصادر البريطانية الرئيسة والخاصة بتاريخ الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية ، وهو كتاب « دليل الخليج » ومؤلفه « لوريمر » . (١) وتستهدف هذه المحاولة الدفاع عن نشاط القواسم ومغامراتهم البحرية والتي اطلقت عليها المصادر الاجنبية اسم « قرصنة » .

كان يطلق تعبير « القواسم » في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على كل « **قبائل الساحل الشمالي الغربي لعمان بما فيه قبيلة القواسم الفعلية** » . (٢) ولم يكن القواسم وحدهم الذين اشتهروا بالمغامرات البحرية ، بل اشتهرت معهم بعض القبائل العربية الاخرى مثل بني كعب في شمال الخليج وبنوياس وبوعلي في جنوب قطر ، ولكن كان القواسم اكثر هؤلاء شهرة في هذا الميدان . (٣) وعندما تزايدت قوة الوهابيين في نجد وظهروا على ساحل الخليج العربي منذ اواخر القرن الثامن عشر ، ومع ازدياد نشاط القواسم ، تذرعت بريطانيا بحجة محاربة « القرصنة » وتجارة الرقيق للقضاء على القواسم وفرض سيطرتها ونفوذها على الخليج العربي ، (٤) خاصة وان نفوذ القواسم في القرن الثامن عشر امتد الى معظم الاقاليم المجاورة واتخذوا رأس الخيمة عاصمة لهم وعملوا على توجيه طاقاتهم نحو استغلال الموانيء القريبة على الساحل الايراني فأصبح لهم في سنة ١٧٦٠ قواعد في (لافت) على جزيرة قشم وكذلك في (لنجة) و (شناص) على الساحل الى الغرب ، كما امتد نشاط اسطول القواسم في تلك الفترة الى السفن الانجليزية ففي سنة ١٧٧٨ استولى القواسم على سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية وهي في طريقها من بومباي الى البصرة ، ولم يقف الامر عند هذا الحد بل طلبوا من الحكومة البريطانية ان تدفع لهم في مقابل السماح لسفنها التجارية بالمرور بأمان في الخليج العربي .

والكتاب عبارة عن عرض لنشاط القواسم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، كما يتناول السياسة البريطانية وخططها لتدمير قوة القواسم . ويرجع

في البداية تاريخ ظهور رأس الخيمة كعاصمة لساحل عمان بزعامة القواسم الى منتصف القرن الثامن عشر وذلك بعد انحلال دولة اليعاربة وانتشار الاضطراب والصراع بين القبائل العمانية ، فظهر شيخ القواسم « رحمة بن مطر القاسمي » في « رأس الخيمة » واصبح القواسم قوة عسكرية في ساحل عمان .

لم يميز القواسم في مغامراتهم البحرية بين السفن التي ترفع العلم البريطاني او غيرها ففي ١٨ مايو ١٧٩٧ هاجم اسطول القواسم السفينة (باسين) واستولى عليها رغم رفع العلم البريطاني فوقها . ويعترض المؤلف على الرأي القائل بأن نشاط القواسم في تلك الفترة يعود الى قيام قاعدة للوهابيين في البوريمي ، ويقول « ان الفاعل الحقيقي هو العزم القاسمي لا غير ، وان كانوا قد استنشقوا نفحات وهابية حركت نشاطهم » . والحقيقة هي ان القواسم رحبوا بالتبعية لحكومة الدرعية فقد كانوا يقدمون خمس الغنائم والاسلاب الى الحاكم السعودي وذلك حسب ما تقضي به الشريعة الاسلامية على اعتبار ان نشاط القواسم اصبح جزءا من حركة الجهاد التي يتزعمها الوهابيون .

ويذكر المؤلف في مجمل حديثه عن العلاقات بين القواسم والوهابيين ان القواسم قد اتفقوا مع الوهابيين خوفا من تقدمهم الى عمان وكان الاتفاق على ان يكونوا لهم ظهرا عندما يتعرضون لاي عدوان بريطاني ، ولم يدرك القواسم حينئذ انهم على الساحل بينما الوهابيون في داخل الجزيرة العربية ، فاذا هاجمت بريطانيا وادركت القواسم لن يستطيع الوهابيون دفع هذا الهجوم . (٥)

استمر نشاط القواسم ضد السفن العمانية والبريطانية ففي عام ١٨٠٥ استولوا على السفينة (شانون) والسفينة (تريمر) وهما سفينتان تجاريتان تابعتان للمقيم البريطاني (مانيستي) في البصرة ، وفي اعقاب هذا الحادث وجهت الحكومة البريطانية حملتها الاولى ضد القواسم وانتهت بعقد اتفاقية ٦ فبراير ١٨٠٦ ، وبمقتضاها اعلن السلم ، وتعهد القواسم بدفع غرامة قدرها ثلاثون الف روبية في حالة خرقها ، وان يقدموا انذارا مدته ثلاثة شهور قبل ان يقوموا بخرق اتفاقية السلم اذا كان لا بد منه . كما تعهدوا بتقديم العون للسفن البريطانية التي تزور شواطئهم ، فساد الهدوء المنطقة لمدة عامين ، وقد يرجع هذا الهدوء الى رسو اسطول بريطاني كبير في المنطقة خلال ١٨٠٧ — ١٨٠٨ . ولكن المؤلف يرى أن الهدوء انما تعود اسبابه الى « ان العرب اهل وفاء لا يرضون اذا اعطوا عهدا او امانا لاحد ان ينقضوه بغير موجب » .

وسرعان ما استأنف القواسم نشاطهم فوقعت سلسلة من الهجمات على السفن البريطانية منذ سنة ١٨٠٨ . هنا قامت حكومة الهند بارسال حملة ضدهم

وذلك في سبتمبر ١٨٠٩ ، وكانت تعليماتها للقادة البحريين تتركز حول ضرورة تدمير القوة البحرية للقواسم ، وطلب منهم الالتزام باقصى حد ممكن بالحذر والحيطة ومنع العمليات البرية بقدر الامكان خاصة تلك التي تثير الصراع مع القوى التي تعمل بأمر الامير الوهابي ، كما كان على الحملة التعامل مع القواسم كقوة مستقلة بذاتها ، (٦) وان تتجاهل الروابط القائمة بين القواسم والوهابيين. « وعليهم مراعاة السيادة التركية والايرانية وان تقدم تأكيدات للسلطات التركية — اذا لزم الامر — بأن هدف الحملة هو « تأديب القراصنة » ولا تعني اي مطالب او مطامع اقليمية . ويتعرض المؤلف نقلا عن لوريمر لموقف الكويت من الحملة البريطانية فيذكر ان شيخها عرض تقديم مرشدين يعرفون مداخل موانيء « القرصنة » الا ان القائد البريطاني رفض هذا العرض ، ويرى المؤلف ان شيخ الكويت كان يخشى جولة القواسم ان تأتي فتحتل بلاده لذلك جاء بهذه المساندة » .

وصلت الحملة البريطانية الى رأس الخيمة في ١١ نوفمبر ١٨٠٩ وبدأت بقصف المدينة فوجدت مقاومة باسلة من اهلها مستخدمين السيوف والاسلحة الخفيفة ، ولكنها أشعلت النار فيها واستطاعت احتلالها في ١٣ نوفمبر ١٨٠٩ ثم قام افراد الحملة بعمليات نهب ، ولكن اضطر الانجليز الى الانسحاب منها بعد وصول انباء عن وصول قوات وهابية لتخليص المدينة من الاحتلال . (٧) ثم توجهت الحملة الى لنجة فوجدتها مهجورة من اهلها الذين عرفوا بوصولها فتحركت نحو الشارقة فلم تجد بها سفنا كبيرة حيث احرقها الاهالي . (٨)

وعلى الرغم مما احدثته الحملة البريطانية في الموانيء العربية وتدميرها لمدينة رأس الخيمة ، الا انها لم تستطع تدمير قوة القواسم البحرية . وهكذا فان خطر القواسم لم ينته بحملة ١٨٠٩ ولم يتم عقد اتفاق مع القواسم ، ويبدو ان السبب في ذلك مرجعه الى ان الشيخ الشرعي للقواسم « سلطان بن صقر » كان منفيا من قبل الوهابيين وكان القواسم خاضعين لو كلاء الوهابيين . (٩)

لقد توقفت مغامرات القواسم البحرية في اواخر ١٨١٠ و ١٨١١ ، وبينما كانت الدولة السعودية الاولى تتعرض لهجوم القوات المصرية في (١٨١١ — ١٨١٥) فقد استأنف القواسم نشاطهم ضد السفن البريطانية كما هاجموا احدى السفن الامريكية وكذلك الفرنسية . (١٠) فكان لا بد لحكومة الهند البريطانية من وضع ترتيبات لحملة جديدة ترسلها الى الخليج العربي لتدمير قوة القواسم ، وقد دارت مباحثات طويلة في حكومة بومبي حول خطط الحملة ، فهناك خطة ترى الاكتفاء بتدمير القواسم وعدم التدخل في شؤون الخليج ، وهناك مشروع اخر يرى ضرورة رسم خريطة الخليج السياسية بما يتلاءم والمصالح البريطانية ، ورأى اخر يقوم على الاعتماد على حلفاء بريطانيا بمساعدة فارس

على توطيد سلطاتها في السواحل الشرقية وان يمد سلطان مسقط نفوذه على رأس الخيمة ، وبذلك يستحكم العداء بين اهل الخليج العربي ، كما كانت الخطة الاخيرة تحبذ تشجيع العثمانيين على ممارسة سلطتهم على الساحل الممتد من رأس الخيمة حتى شط العرب .

واخيرا استقر راي الحكومة في الهند على المباديء الاتية وهي التي حددت سياستها نحو الخليج العربي :

(١) احترام الاوضاع السياسية الداخلية في الخليج ، فلا تتدخل بريطانيا لصالح احد الرؤساء الا اذا طلب منها ذلك ، وحينئذ تؤيد صاحب الحق المشروع. وعلى هذا استبعد الرأي القائل بتسليم جزر البحرين لحاكم مسقط . (١١)

(٢) وضع اسس لحرية الملاحة في الخليج وحق تفتيش السفن بالاتفاق مع القبائل العربية .

(٣) افضلية جزيرة قشم على رأس الخيمة لاقامة قاعدة بريطانية ثابتة .

وهكذا استقر رأي حكومة الهند على ارسال حملة وبالفعل خرجت حملة بحرية كبرى من بومباي في ٣ نوفمبر ١٨١٩ بقيادة الجنرال « وليام جرانت كير » الذي ابحر على السفينة (ليفربول) وعلى ظهرها القسم الاوروبي من الجنود وتبعته بقية الحملة خلال ايام قليلة وتوجهت الى رأس الخيمة وهناك واجهت مقاومة باسلة من القواسم مدافعين عن مدينتهم التي ظل الانجليز يضربونها بمدافعهم ستة ايام من الثالث الى التاسع من شهر ديسمبر ١٨١٩ وبعد ارهاق الاهلين نزل جنود الحملة ونهبوا البلاد وبعد سقوط رأس الخيمة اقيمت قاعدة بريطانية فيها ثم سارت بقية الحملة الى الموانيء العربية الاخرى وهدمت الاستحكامات الموجودة في ام القوين وذلك في ١٨ يناير ١٨٢٠ وكذلك عجمان والشارقة ودبي ، وكانت تعمد الى احراق السفن التي تعثر عليها ثم قام الاسطول بمسح الجزء الجنوبي لشاطيء الخليج .

وفي اعقاب نجاح الحملة البريطانية (١٢) اهتمت بعقد اتفاقيات منفردة مع شيوخ ساحل عمان . (١٣) واعتبرت خطوة اولى نحو عقد تسوية عامة والتي تعتبر النتيجة النهائية لهذه الحملة ، وفي الحادي والعشرين من يناير ١٨٢٠ . عرض (جرانت كير) نص المعاهدة العامة على شيوخ كل من ابو ظبي وام القيوين والعجمان والشارقة ورأس الخيمة تاركا الباب مفتوحا لغيرهم للدخول فيها .

والمعاهدة عبارة عن احدى عشرة مادة تعهد الموقعون عليها ان يمتنعوا عن القيام بنشاط بحري والذي اعتبرته المادة الاولى من المعاهدة « اعمال النهب والقرصنة في البر والبحر » .

وتهمنا الاشارة الى المادة التاسعة « ان خطف الرقيق من الساحل الشرقي لافريقيا ونقلهم بعد ذلك فوق المراكب التجارية يعتبر عملا من اعمال القرصنة ويجب على العرب الكف عن ذلك » . لقد اعتبرت هذه المادة نصرا سياسيا لان العبيد هم الذين كانوا يقاومون النفوذ البريطاني اكثر من غيرهم .

اما عن موقف حكومة بومباي من هذه الاتفاقية فانه على الرغم من رضى حكومة بومبي على قيادة كير للعمليات العسكرية الا انها لم تكن راضية عن هذه الاتفاقية واعتبرته متساهلا ، فكانت ترى ضرورة عزل الشيوخ عن اماراتهم ووضع شيوخ محليين بدلا منهم او تحويل اماراتهم لحكم سلطان مسقط. الى جانب اعتراضات اخرى والتي من اهمها ان الاتفاقية لم تقدم اي ضمان لعدم تجدد « اعمال القرصنة » ولكن دافع جرانت عن الاتفاقية واوضح انه لو فرض على الشيوخ اجراءات متشددة فانه كان عليه ان يقوم بمزيد من العمليات ويطاردهم الى الداخل وهذا يناقض التعليمات الصادرة اليه . (١٤) واخيرا استطاع اقناع حكومته برأيه فتم التصديق على المعاهدة .

اهتمت حكومة بومباي بمراقبة الموقعين على الاتفاقية كما اهتمت بدراسة النظام السياسي في منطقة الخليج العربي كلها .

ولكن على الرغم من عقد هذه المعاهدة الا ان منطقة الخليج العربي شهدت منذ ١٨٣٠ اضطرابات اثبتت ان معاهدة السلم العامة لم تحقق السلام في البحر لانها لم تنص على منع الحروب البحرية ، فبرز اقتراح بريطاني بضرورة موافقة شيوخ ساحل عمان على هدنة بحرية تستمر طوال موسم الغوص وتم التوقيع على وثيقة بين شيوخ الشارقة ودبي وعجمان وابو ظبي في ٢١ ابريل ١٨٣٥ تعهدوا فيها بالمحافظة على هدنة بحرية تبدأ في ٢١ مايو وتستمر حتى ٢١ نوفمبر من نفس السنة وقد استحسن المهتمون بالغوص هذه الهدنة ومنذ ١٨٣٥ حتى ١٨٤٢ عقدت سلسلة من الهدنات البحرية القصيرة الى ان تم في ١٨٤٣ عقد هدنة بحرية مدتها عشر سنوات .

لا يعني عقد هذه الاتفاقيات توقف القواسم عن مغامراتهم البحرية بل وقعت عدة هجمات في ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ ، ١٨٤٠ و ١٨٥٢ . وعندما اوشكت هدنة السنوات العشر على الانتهاء وقع الشيوخ معاهدة السلم الدائمة وذلك في ٤ مايو ١٨٥٣ .

لقد سادت الاضطرابات في تلك الفترة ساحل عمان فكل امير يروم شن الغارة على الامير الاخر ، وكانت بريطانيا تشعل نار الفتنة بينهم ثم تطالبهم بالصلح وتعرضت منطقة ساحل عمان والخليج العربي عموما الى الاهتمام والنشاط الدولي المتزايد في اواخر القرن التاسع فقد كان هناك وكلاء من فرنسا

وكذلك كان الاهتمام الفارسي والعثماني يزداد وهنا عقدت بريطانيا اتفاقية مع شيوخ ساحل عمان في مارس ١٨٩٢ تعهدوا فيها بألا يوقعوا اية اتفاقية او يدخلوا في اية علاقات مع دولة اجنبية اخرى سوى بريطانيا والا يسمحوا لوكيل دولة أجنبية أخرى بالبقاء في اراضيهم دون موافقة مسبقة من الحكومة البريطانية والا يمنحوا اي جزء من اراضيهم سواء عن طريق البيع او الايجار او الرهن او التنازل او غير ذلك لاحتلال اية دولة اجنبية باستثناء بريطانيا (١٥) .

ان اي عرض لهذا الكتاب يجب ان يضع في اعتباره غاية المؤلف وهي الدفاع عن النشاط البحري للقواسم ، ولقد حاول ايضاح سلسلة الجرائم التي ارتكبتها الحكومة البريطانية في ساحل عمان وعمليات التدمير التي قامت بها منذ حملتها الاولى في سنة ١٨٠٦ .

لقد استعان المؤلف ببعض المراجع العربية المهمة واشار الى بعضها في قائمة المراجع واغفل البعض الاخر ، فعلى الرغم من رجوعه الى كتاب الدكتور صلاح العقاد « التيارات السياسية في الخليج العربي » الا انه اغفل الاشارة اليه . ولقد اعتمد المؤلف بصورة واضحة على مؤلف دليل الخليج » خاصة عند تناوله للعلاقات بين القواسم والحكومة البريطانية وهنا لم يساعده نقص المراجع في ابراز الاوجه القوية لكي يكون مؤلفه قوي التأثير في القاريء بحيث يواصل ضغطه حتى يصل الى هدفه .

المراجع والهوامش :

١ ــ يتكون دليل الخليج من قسمين تاريخي وجغرافي .

٢ ــ لوريمر . **دليل الخليج . القسم التاريخي** . الجزء الاول ، ص ٣٨٥ .

٣ ــ د . صلاح العقاد . **التيارات السياسية في الخليج العربي** . ص ٩٢ .

٤ ــ بذلت بريطانيا جهودا كبيرة للحيلولة دون تكوين وحدة سياسية كبيرة في الخليج العربي بزعامة الوهابين او القواسم .

٥ ــ عندما تعرضت مدينة رأس الخيمة في ١٢ نوفمبر ١٨٠٩ الى هجوم بريطاني تحركت قوات وهابية لنجدتها . لوريمر . المرجع السابق . الجزء الثاني ، ص ٩٨٩ .

٦ ــ جاءت هذه التعليمات لتؤكد حرص حكومة الهند على عدم الاعتراف بتبعية القواسم للدولة السعودية الاولى .

٧ ــ لان حكومة الهند لم تكن تريد ان تدخل في حروب برية مع السعوديين قد لا تستطيع تحقيق اي نجاح من ورائها .

٨ ــ استطاع اسطول عجمان تلافي نفس المصير بالاحتفاء او الهرب لاننا نجده في سنة ١٨١١ يذرع الخليج طولا وعرضا . لوريمر . **دليل الخليج** . الجزء الثاني ، ص ٩٩٢ .

٩ ــ ان عقد اتفاقية مع الوكلاء انما يعنى اعتراف بريطاني بالسيادة الوهابية على القواسم .

١٠ـــ « تتبع القواسم السفن البريطانية في المحيط الهندي والى مسافة لا تبعد اكثر من ستين ميلا عن بومباي ، وتدل هذه الاحداث على ان قوة القواسم لم تكن تستمد حيويتها من وجود الدولة السعودية الاولى وانما كان ارتباطها بها معنويا الغالب » . د . صلاح العقاد . **المرجع السابق** .

١١ـــ لم تكن حكومة بومبي تنظر الى تدخل القوات المصرية في شئون الخليج بارتياح ، لذلك كانت تفضل خطة تجعل من سيد عمان مسئولا عن ساحل عمان وعن جزر البحرين . لوريمر . **المرجع السابق** . ص ١٠٠٧ .

١٢ـــ لقد ساعد سقوط الدرعية عاصمة الدولة السعودية الاولى في ١٨١٨ في يد القوات المصرية على نجاح الحملة البريطانية .

١٣ـــ عملت بريطانيا على تفكك منطقة الخليج العربي لكي توطد نفوذها فعقدت مع الشيوخ اتفاقيات فردية جردتهم من القوة ، فعلى سبيل المثال الشرط الاولى في الاتفاق المعقود مع شيخ القواسم صالح بن صقر ، يتعهد الشيخ بتسليم السفن الحربية الموجودة في الشارقة او رأس الخيمة في ابو ظبي ويحتفظ فقط بمراكب الصيد « لقد كانت هذه الاتفاقيات خطوة تمهيدية لادخال المنطقة تحت النفوذ والسيطرة البريطانية » .

١٤ـــ يرى جرانت بأنه « رغم الدخول في اية اتفاقيات مع القواسم بهدف اعادة الثقة المفقودة فلا بد من وضع القوة دائما في الاعتبار . فما يلزم القواسم ليس هو الاتفاقية في ذاتها بقدر ما هي الاثار المعنوية التي ترتبت على ضرب هذه القبيلة وهزيمتها . لوريمر . **دليل الخليج** . الجزء الثاني ، ص ١٠٢٧ .

١٥ـــ وهكذا جردت بريطانيا الشيوخ العرب من كل مظاهر الاستقلال وقيدتهم في هذه المعاهدة من الدخول في اية علاقات دولية . ويتضح لنا من مواد معاهدة ١٨٩٢ الاستبداد البريطاني في الخليج العربي . فما هو المقابل الذي حصل عليه شعب هذه المنطقة .

